

النحو العربيّ والقصة البيرونيّة دراسة في قضية التأثير والتأثر

◆ أ.م.د. علي خليف حسين^(*)

طالما رافقت نشأة العلوم سمة الافتراضات الاجتهادية، ولاسيّما في تلك المرحلة التي لم تحمل معها تواريخها الزمنية، أو التي تتبعها أدلتها التي تقطع بنسبتها الخالصة، ولعلّ من العلوم التي تناولتها الدراسات ووقف عندها الباحثون طويلاً بين مؤيدٍ ومنكر، ومترددٍ ومتحمس، وشاكٍ ومقتنع، هو علم النحو العربيّ، الذي قيل فيه الشيء الكثير، وتعددت مشارب المساهمين في وضع تأريخ محدّد لنشأته، والمؤثرات الداخلة عليه، ومدى الأصالة العربيّة التي حملها، وأبرز المدارس الفكرية التي أثرت في النشأة، وبعيداً عن الحماس البحثي، والعاطفة الفكرية، فإنّ النظر إلى قضية نشأة النحو العربيّ من منظور البحث عن المؤثرات فيه من دون النظر إلى الدوافع والأسباب يمثل انزياحاً عن المنهجية العلميّة، وفي الوقت نفسه إنكار المؤثرات مطلقاً، والقطع بعدم دخولها وتسربها إلى النحو العربيّ - أيضاً- لا يعدّ منهجاً علمياً يتقصّى الحقيقة ليقف عليها، فالنظرتان غير علميتين، أمّا معارضة الأفكار، ومقاربة المضامين فيمكن أن تعطي رأياً مقنعاً في مسألة شغلت تفكير الباحثين قديماً وحديثاً.

(*) جامعة بغداد / كلية الآداب

قصة عن أولية نشأة النحو الهندي، أو قريبة من هذا المضمون، حاول بعض الباحثين ربطها بنشأة النحو العربي على مستوى الأحداث، والمضامين، والدوافع، والشخصيات ليثبتوا الأثر الهندي في علم النحو العربي، هذا البحث سعى إلى استقصاء أثر القصة على وجه الخصوص، وأثر النحو الهندي في النحو العربي على وجه العموم مع الإشارة إلى التأثيرات الأجنبية الأخرى، في محاولة لإثبات أصالة نشأة النحو العربي، وأنه جاء من بناء أفكار العقل العربي.

بيئة النشأة :

إن الإبداع العربي في وضع أسس، وقواعد اللغة العربية جعل العلماء يقفون مواقف تكاد تكون متباينة من هذا العمل الكبير الذي يدل على عقلية كبيرة درست، وتوسعت، وأحاطت، ونظرت، وأسست، وأصلت، فذهب البعض إلى أن نشأته تأثرت بالنحو السرياني الذي تأثر بدوره بالنحو والمنطق اليونانيين^(٢). في حين نجد بعض الباحثين يرجع ذلك العلم إلى العقلية العربية، وأن علم النحو نبت عند العرب، كما نبتت الشجرة في أرضها، وأنه أنقى العلوم العربية عروبة، فهو عربي خالص، نشأ في بيئة عربية خالصة^(٣).

وبغض النظر عن الاتجاهات الفكرية التي وسمت أقوال من درس نشأة النحو العربي، فإن الأمر كله يقف عند أرضية الدافع الذي دفع العرب إلى التفكير بوضع أو ابتداء علم يحفظ اللغة من التدهور، فكان القرآن الكريم هو الباعث لهذه النشأة، من حيث إن النص القرآني تعرض إلى تحديات لغوية ليست باليسيرة، إذ إنها أصابت

وهذا البحث يحاول أن يستقصي بعض تلك الأفكار والآراء، ويقف عند رأي يكاد يكون غريباً، أو قصة تحمل الكثير من تلك الأفكار، وهي قصة نقلها (البيروني) الذي يعدّ واحداً من الشخصيات العلمية البارزة التي ظهرت في التأريخ الإسلامي، جمع العلم والأدب، والفلسفة، والتأريخ، والطب، والرحلة، والفيزياء، فجمع علوم عصره، أن أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني اشتهر بكنيته، إذ يُكنى (بأبي الريحان)، وكذلك اشتهر بـ(البيروني) التي تعني بلغة مدينة خوارزم (الغريب)، لقلّة مكوّته، وكثرة ترحاله، ولد في سنة (٣٦٢هـ) في خوارزم، وتلقّى علومه فيها، فتعلّم اليونانية والسريانية إضافة إلى الثقافة العربية والفارسية، وكان موسوعياً ألف في مختلف العلوم، ومنها كتابه (في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة)، وهو كتاب دوّن فيه الثقافة الهندية القديمة، فكان مرجعاً لكل ما يتصل باللغة الهندية وحياة الشعب الهندي، وقد تُرجم إلى لغات عدة، وللبيروني آراء، ونظريات انفرد فيها من مثل حديثه عن أصل الحفريات وسببها، وذهابه إلى أنها بقايا آثار الكائنات الحية التي عاشت في قديم الزمان، وحظيت بتأييد العلماء في العصر الحديث، وحديثه عن سرعة الضوء، وأنّ الضوء أسرع من الصوت، وناقض فكرة الخسوف والكسوف وغيرها من الظواهر الطبيعية^(١). وتوفي البيروني في عام (٤٤٠هـ).

في كتابه الذي يحمل عنوان: (في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة) نقل فيه

(١) تفاصيل أوسع عن حياته وعلومه، ينظر: معجم الأدباء: ٣١٦/٢، معجم المؤلفين: ٢٤١/٨، السوافي بالوفيات: ٤٦٧/٤.

(٢) في أصول اللغة والنحو: ١٠٢ .
(٣) البحث اللغوي عند العرب: ٣٥٤ .

اللفظ والدلالة، فبعد أن كانت قواعد اللُّغة العربيَّة مبنية على السليقة تعرضت هذه السليقة إلى تصدّعات متفاوتة، أو متباينة في الشدّة، بسبب توسّع الرقعة الجغرافية للدين الإسلامي، فكان لزاماً على المتصدين للأمر آنذاك أن يسارعوا لتدارك القواعد التي كانت تجري سليقة على السنة الناس وتدوينها، وهي في واقع أمرها تقاليد لغويّة جرى عليها العرب، وعدّوا كلّ من خرج عليها شاذاً، أو لحناً وجب تقويمه وتصويبه^(٤).

وتذكر الروايات التي وصلت إلى حدّ الإجماع أنّ واضع النحو العربيّ وقواعده الأولى هو أبو الأسود الدؤلي (ت ٥٦٩هـ) بتوجيه وإرشاد من أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، ومما جاء في هذا الجانب قول أبي الأسود: (دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - عليه السلام - فأخرج لي رقعة فيها: الكلام كلّ اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى. قال: فقلت: ما دعاك إلى هذا؟ قال: رأيت فساداً في كلام بعض أهلي؛ فأحببت أن أرسم رسماً يُعرف به الصواب من الخطأ. فأخذ أبو الأسود النحو عن علي - عليه السلام - ولم يُظهره لأحد)^(٥).

ومهما قيل في التشكيك في الروايات التي تنسب وضع النحو إلى الإمام علي (عليه السلام)، وأبي الأسود الدؤلي والتي يركن إليها بعض الباحثين^(٦). فإنّ الروايات كلّها تدلّ على أمور وهي:

١- إنّها تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي بغض النظر عن الباعث أو الدافع، وأبو الأسود

ينسب العمل إلى الإمام علي (عليه السلام)^(٧).
٢- كلمة النحو، أو تسميته نحواً، لم ترد فيه روايات إلا في تلك التي ينسبها أبو الأسود إلى الإمام علي (عليه السلام)، فالتسمية جاءت من تلك الروايات التي دارت بين الإمام (عليه السلام) وبين أبي الأسود، إذ يقول أبو الأسود: إنّ الإمام علي (عليه السلام) ألقى له رقعة مكتوب فيها: (الكلام كلّ اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المُسمّى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما جاء لمعنى، وقال لي: انْحُ هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسمٌ لا ظاهر ولا مضمر؛ وإنّما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم)^(٨).

بعد ذلك جاء أبو الأسود إلى الإمام (عليه السلام) يعرض عليه ما جمعه ووضعه، فاستبعد (لكن) من أخوات (إنّ) فيقول أبو الأسود: (قال لي: وأين لكنّ؟ فقال: ما حسبتها منها؛ فقال: هي منها فألحقها، ثم قال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت!)^(٩).

ومن هذا قال أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧هـ) (فلذلك سُمِّي النحو نحواً)^(١٠).

وبغض النظر عن المضامين التي حملتها الروايات فإنّ الذي يعينها كلمة (نحو)، وهي لم تغادر الروايات التي ضمت أبا الأسود بالإمام علي (عليه السلام)، والتسمية بحدّ ذاتها تشير وتدل على من وضع النحو، المهم من ذلك أنّ النحو

(٤) في أصول اللُّغة والنحو: ٨٨ .

(٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة: ١ / ٥. وأخبار النحويين البصريين: ١٣ .

(٦) ضحى الاسلام: ٢ / ٢٨٥. والمدارس النحوية: ١٤ وما بعدها.

(٧) نزهة الألباء: ١٩. وطبقات النحويين واللغويين: ٢١.

(٨) نزهة الألباء: ١٥ .

(٩) م. ن: ١٥ .

(١٠) م. ن: ١٥ .

العربيّ نشأ في البيئة العربيّة فأصوله وقواعده عربيّة، ومصطلحاته وتقسيماته عربيّة.

إنّ الروايات التي وردت لتؤرخ للنحو العربيّ على الرغم من اختلاف مضامينها، أو تواريخها الزمنية، فإنّها في الوقت نفسه تدور حول رجل واحد، وهو أبو الأسود الدؤلي الذي أجمعت عليه الروايات، ولم تستطع أقلام المستكثرين على العرب وضع مثل هكذا علم أن تتجاوز ذكر أبي الأسود، بل أقرّت بتسميته له.

وبشأن التسمية (علم النحو) ذهب بعض الباحثين مذهبا غريبا يبدو من خلاله قلة التوسع والاستقصاء، أو الوقوف الفعلي على الروايات التي أرخت لتأريخ النحو العربيّ، إذ ذهب إلى أنّ تسمية النحو جاءت متأخرة عن عصر أبي الأسود الدؤلي، ولم يذكرها أبو الأسود، إذ قال ما نصّه: (تشير أكثر المصادر القديمة إلى أنّ أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، هو أوّل من أسس علم النحو على أنّ تلك الروايات التي رويت عن نشأة النحو العربيّ لم تذكر لنا أنّ أبا الأسود الدؤلي أو واحداً من تلامذته قد استعمل مصطلح النحو، إذ لا نجد هذه التسمية إلا لدى علماء الطبقة الثانية من البصريين كابن أبي إسحق (ت ١١٧هـ)، وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩هـ)، ثم شاعت هذه التسمية بعد ذلك)^(١١).

ولا ندري ما المقصود بالروايات، أو المصادر القديمة التي ركن إليها الباحث؟ مع أنّه لم يعتمد منها سوى كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٣٢١هـ)، والمعارف لابن قتيبة

(١١) مأخذ المحدثين على النحو العربيّ: ١٧-١٨.

(ت ٣٢٧هـ)، وهذه المصادر لم تكن معنية بشكل دقيق بتأريخ النحو والنحاة، كما لا يخفى على المطلّع حتى لو ذكرت بعض الروايات التي تتعلق بتأريخ العلماء، ثم إنّ مصادر التأريخ اللغوي تشير وتذكر ذلك صراحة كما ذكرنا في رواية أبي الأسود التي ذكرها أبو البركات الأنباري، إذ نص صراحة على أنّ تسمية النحو جاءت من خلال ما دار بين الإمام علي (عليه السلام)، وأبي الأسود، وعلى ذلك قال أبو البركات: (فلذلك سُمي النحو نحواً)^(١٢). إشارة إلى قول الإمام لأبي الأسود: (ما أحسن هذا النحو الذي نحوت)^(١٣). وفي رواية أخرى: (انح هذا النحو)^(١٤). ولربما يكون ذلك بسبب النقول عن الآخرين.

قصة البيروني :

ترد في كثير من الكتب روايات عن نشأة علم ما، أو حدث واقعة ما، أو أي شيء يحدث أثرا في المجتمع، وقد تختلط تلك الروايات بين الحقيقية والخيال، أو إنّها تروى موروثا لدى الشعوب، أو حكايات يتناقلونها، ومثل هذه المرويات قد تتطابق مع روايات لدى الشعوب المتعددة الألسن والثقافات، وإنّ مجرد اتفاقها لا يعني التأثير، أو التأثير؛ لأنّ الشعوب ذات طابع إنساني تستنبطه تقاليد أو موروثات اجتماعية قد تقترب من التشابه، أو التطابق، وهذه خصلة بشرية تنزع إليها من دون قصد التقليد، أو معرفة مسبقة بما فعله أو يفعله الآخر، ولكن في الجانب العلمي فهناك إبداع وتفكير من أجل الخلق والابتكار لمعالجة مشاكل تقع في هذا المجتمع أو ذاك، ويعدّ

(١٢) نزهة الألباء: ١٥.

(١٣) م. ن: ١٥.

(١٤) نزهة الألباء: ١٥.

علم النحو واحدا من العلوم التي كثرت حولها الآراء وتناقضت، وتنافرت بالاستناد إلى روايات قد تحمل في مضامينها تناقضات لتباين مرجعياتها التي اتخذت لنفسها النقل والرواية، والبيروني يعدّ واحدا من العلماء الذين أدلوا بدلوهم في الخوض بالحديث عن النحو العربيّ، فأورد رواية من الموروث الهندي تبين كيفية وضع النحو الهندي، أو الباعث لوضع النحو في تلك الأمة التي تفصلها مسافات شاسعة عن بلاد العرب، فضلا عن اختلاف الألسن، المهم أنّ تلك الرواية تلقفها بعض المحدثين لبعدها وثيقة، أو دليلا يشير إلى تأثر النحو العربيّ بالنحو الهندي، أو بالأحرى إنّ قصة نشأة النحو العربيّ منسوجة على غرار القصة الهندية التي أوردتها البيروني، وأخذ أنصار هذا الاتجاه بتقريب الشخوص الهندية من الشخوص العربيّة التي وردت أسماؤها مصاحبة لنشأة النحو، وارتبط اسمها باسم نشأة النحو العربيّ، وبعيدا عن الحماس العاطفي، والانتقاد المبني على أسس عاطفية، فإنّ ما ذهب إليه من تمسك بمضامين، وظواهر القصة الهندية قد جانب الصواب، ولم يراع خصوصية المجتمعات التي تنشأ فيها العلوم ويتصدى فيها العلماء لحل مشاكل مجتمعاتها.

إنّ الذي يحزّ في النفس أن يذهب بعض الباحثين العرب إلى استجلاب رواية قديمة لربما وُضعت من خيال القصاصين، أو من أفكار المولعين بالتأثير والتأثر الذين يستكثرون على العرب الإبداع لإسناد آرائهم بأنّ قصة وضع النحو العربيّ تشبه قصة قديمة وردت في التراث الهندي معالمها، أجواؤها، ومضامينها تتطابق مع القصص والروايات التي وردت في التأريخ اللغوي العربيّ لتؤرخ للنحو العربيّ.

تقول الرواية التي يرويها البيروني والتي مفادها: إنّ أحد ملوك الهند كان في أحد الأيام يلاطف نساءه فقال لإحدهن: (ماود كند هي)، أي لا ترشي عليّ الماء، فظنّت أنّه يقول: (مود كند هي)، أي إحملي حلوى، فذهبت وأقبلت بها، فأنكر فعلها وامتنع عن الطعام، واحتجب إلى أن جاءه أحد العلماء وسأل عنه، ووعدّه تعليم تصاريف الكلام، وذهب ذلك العالم إلى (مهاديو) مصلياً، مسبحاً، وصائماً متضرعاً إلى أن ظهر له، وأعطاه قوانين يسيرة، ووعدّه التأييد فيما بعدها من الفروع. فرجع العالم إلى الملك وكلمه إياها^(١٥).

ومن هذا المنطلق ذهب هذا البعض إلى (أنّ حكاية أبي الأسود الدؤلي قد وُضعت على غرار هذه القصة مثل فيها (مهاديو) الإمام علي، ومثل الملك عمر في رواية وزياد ابن أبيه في أخرى ومثل العالم أبو الأسود نفسه)^(١٦).

وعلى الرغم من الذهاب إلى هذا الرأي، أو التفسير قد أقرّ بأنّ ذلك لا يعني أنّ العرب قد أخذوا نحوهم عن الهنود لاختلاف مرجعية اللّغة أو الأصل اللّغوي من حيث إنّ العربيّة سامية والهندية غير سامية وأن الاضطراب في الرواية لا يجرّد أبا الأسود من الإسهام في وضع حجر الأساس في النحو العربيّ، وعزا ذلك إلى أنّ هناك من حاول تقريب الظروف التي نشأ فيها النحو العربيّ من نشأة النحو الهندي، مضافاً إلى ذلك الإشارة إلى أنّ رواية أبي الأسود قد دخلها الافتعال^(١٧).

إنّ سطحية القراءة للروايات وعدم التعمق فيها يمكن أن يربط المضامين بالظروف غير

(١٥) في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة: ١٠٥ .

(١٦) في أصول اللّغة والنحو: ٩٨ .

(١٧) م. ن: ٩٨ .

أنه قد لا يستطيع أن يرتكز على أسس علمية ومنهجية للتدليل على ما يذهب إليه فكيف وصلت هذه الرواية إلى البيئة العربية؟ ثم إنَّها لم تشر إلى الأجواء التي أحاطت بالرواية، وهل كان الباحث فقط هذا الخطأ الدلالي الذي رُبما كان هناك توهم في السمع لقرب اللفظتين بعضهما من بعض. وعلى الرغم من أنَّ ظهور النحو، ووضع القواعد النحوية في الهند أسبق بكثير من ظهور النحو العربي، إذ كان في الهند القديمة ما يقرب من اثنتي عشرة مدرسة نحوية مختلفة، وأكثر من ثلاثمئة مؤلف في النحو، وقد وصلت إلينا الكثير منها وأشهر ما وصل إلينا كتاب (بانيني) المسمّى (الأقسام الثمانية) الذي كتبه في شكل قواعد مختصرة، وظهر في المدة المحصورة بين (٧٠٠ و ٦٠٠) قبل الميلاد، وقد نال ثناء العلماء على مختلف مشاربهم وثقافتهم^(١٨).

فإنَّ ذلك القدم لا يعني التأثير، أو أنَّ العرب اقتبسوا نحوهم من نحو الهنود، أو على غرارهم؛ لأنَّ معطيات الدرس اللغوي العربي تبرز الاختلاف البيئي الكبير، والأسس التي لها مرتكزات بيئية ومعرفية نابغة من عقلية مدركة للتحديات اللغوية التي واجهت الأمة آنذاك، إذ إنَّ النحو العربي وليد التفكير في القرآن الكريم، لأنَّ العلماء لم يفكروا ابتداءً في وضع علم يبحث في قواعد اللُّغة، وعلل الإعراب، وإنَّما قاموا بذلك بعد أن نضجت الفكرة في أثناء قيامهم بعملهم القرآني، وقد ساعدتهم في ذلك وجعلهم يسرعون في وضع أسس النحو وقواعده، الدخول الواسع للشعوب غير العربية في الإسلام، وقد وجدت هذه الشعوب في هذه الدراسة التي بدأها أبو الأسود الدؤلي ما

(١٨) البحث اللُّغوي عند العرب: ٥٩ .

يحقق رغبتها في معرفة اللُّغة العربية^(١٩). ومن هنا فقضية التأثير بعلم أخرى وافدة، وقد تكون ولكن ليس في أبرز علوم اللُّغة العربية وهو (النحو) من خلال تلمذة بعض السريان للخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ)، كحنين بن إسحق (ت ٢٦٠هـ) الطبيب السرياني المعروف الذي يعدُّ من أبرز العلماء الذين نقل علوم اليونان، وافتتاح حركة الترجمة في العالم الإسلامي، وذهب بعض الباحثين إلى أنَّ حنيناً كان معاصراً للخليل وسيبويه، بل وصديقاً للخليل^(٢٠).

وهذا التأثير لا يمكن التوسع فيه، والجري على آثاره، إذا عرفنا أنَّ هناك بوناً شاسعاً بين الخليل وحنين، فهما لم يلتقيا مطلقاً، وإنما الحكاية من نسج الخيال لم يُوفق في التدقيق الزمني بين الرجلين، فالخليل توفي سنة (١٧٠هـ)، ولم يولد حنين بعد، الذي ولد سنة (١٩٤هـ)، فبين ولادة حنين ووفاة الخليل أربع عشرة سنة^(٢١).

فزعم التلمذة باطل، ولا يمكن النسج عليه، وهذا لا ينفي اطلاع الخليل أو غيره على ثقافات عصره، والتيارات الفكرية التي كانت معروفة وسائدة في مدينة مثل البصرة، غير أنَّها في طبيعتها أفكار انتشرت في عصره، وأضفت عليه طابعاً فكرياً عرف منه العلماء لإغناء ثقافتهم، وليس للنسج على منواله وتقليده، فالنحو العربي سار بخطوات طبيعية بدأت بالبساطة، وانتهت بالتعقيد على تكوينه، وأجياله كانوا مدفوعين بدافع ديني غايته حفظ القرآن من اللحن بعد ما شاع في لغة الخطاب بسبب دخول عناصر أجنبية إلى الإسلام

(١٩) الخليل بن أحمد الفراهيدي: ٤١ .

(٢٠) منطق أرسطو والنحو العربي: ٢ .

(٢١) الخليل بن أحمد: ٦٦ .

فاضطرتّها الظروف إلى الارتباط بروابط الدين والمعاملات، أمّا الدافع الآخر فكان حاجة هذه الشعوب الداخلة في الإسلام إلى علم يحقق لهم معرفة هذه اللّغة التي اضطروا إلى تعلمها في ظلّ الحكم العربيّ الإسلامي^(٢٢).

ومهما يكن من أمر، فالتأثير الأجنبي في وضع النحو العربيّ لا يصمد أمام حقائق التاريخ ومعطياته، حتى أولئك الذين حاولوا ربط نشأة النحو العربيّ بالنحو السرياني المقتبس من اليونانية، فلا يثبت زعمهم، لأنّ هناك بونا شاسعا بين النشأتين، لأنّ النحو السرياني وُضعت قواعده في أواخر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الميلاديين، إذ إنّ الدافع لوضع قواعد اللّغة السريانية يكاد يقترب من دافع العرب لوضع قواعد لغتهم، فانتشار العربيّة في العراق والشام وبشكل لافت، ولاسيما سنة ٧٠٠ للميلاد^(٢٣). سوّغ لبعض المستشرقين الذهاب إلى أنّ النحو السرياني مأخوذ من النحو العربيّ، أو أنّ نشأتها كانت واحدة^(٢٤).

وبقي السريان يتناقلون اللّغة تناقلا حتى جاء القرن التاسع الميلادي، فابتدأ بعض منهم بالتأليف في نحو اللّغة السريانية، وبعضهم الآخر في جمعها حفاظاً عليها من الضياع بعد اختلاطهم بالأُمم الأخرى، ويذكر التاريخ اللّغوي أنّ أول من ألّف في نحو السريانية كتاباً يمكن أن يرجع إليه الدارسون والمتعلمون، ويمكن التعويل عليه هو الأسقف يعقوب الرهاوي (ت ٧٠٨م)، وكذلك يوسف الأهوازي الأستاذ في مدرسة نصيبين المتوفى

(٢٢) الخليل بن أحمد: ٧١ .

(٢٣) المفصل في قواعد اللّغة السريانية وآدابها: ٦ .

(٢٤) م. ن: ٦ .

سنة (٨٥٠ م)، ثم أبو زيد حنين بن أسحاق (ت ٨٧٣ م)، وإيليا الطيرهاني (ت ١٠٤٩ م)، وابن العبري (ت ١٢٦٨ م)، فألّف كتابا وهو المُسمّى بكتاب الأشفه (كتابا صمحا)، وعنه أخذ كلّ من صنّف بعده في النحو، ولاسيما نحاة الموارنة^(٢٥).

أصالة النحو :

إنّ قضية التأثير والتأثر قضية لا يمكن تجاهل وجودها، فثقافات العالم تتلاقى بوسائل مختلفة، ولا يوجد حجاب، أو مانع يمنع التقاء الثقافات المختلفة حتى المجتمعات المغلقة على نفسها لا بدّ أن يأتي اليوم الذي يفتح إغلاقها، وتشرع أبوابها لاستقبال ثقافات الآخر، وفي منهج البحث العلمي لا يمكن النظر إلى تشابه العلوم، أو علم آخر على أنّه من باب التأثير والتأثر لمجرد السبق الزمني، بحيث يصبح الزمن الدليل القاطع على ذلك، فالإنسان يفكر، وقد تلتقي فكرة في الشرق مع أختها في الغرب من طريق توارد الخواطر والأفكار من دون أن يكون هناك اتصال بينها، أو طريق يقرب الأفكار زمنياً، بمعنى أنّ الأعمال قد تتشابه، ولكن قد ترجع إلى أصليين مختلفين، فقد وجد بعض المستشرقين تطابقاً في تقسيم منازل القمر بين الهنود والعرب غير أنّهم نفوا وجود صلة بين العمليين، ورأوا أنّ اتفاقهما محض الصدفة^(٢٦).

إنّ العقل الإنساني لم تحده بيئة واحدة عن الإبداع، ويقدم أفكاراً للحاجة التي تضطره، أو ترغمه على الإبداع لإيجاد حلول لمشاكل تواجهه في مختلف مجالات الحياة، ومنها المشاكل اللغوية، فالأسلوب الذي تتبعه أمة ما للحافظ على لغتها،

(٢٥) دراسات في اللغتين السريانية والعربيّة: ١٠-١١ .

(٢٦) البحث اللغوي: ٣٤١ .

قد يختلف عن أسلوب أمة أخرى، أو قد يتطابق، وإنَّ التطابق ليس معناه تأثر، بل قد يكون محض صدفة، أو أن الحل كان واحداً بوضع قواعد أو آليات تعصم اللسان من الوقوع في الخطأ.

فقد يستقر البعض على حكم التأثير أو التأثر، ولكن في استمرارية البحث والتقصي يظهر بطلان ذلك الأمر، فقد كان يُعتقد بأسبقية الهنود في علم الفلك غير أنَّ الأبحاث أثبتت أنَّ قسماً كبيراً من المعارف العلمية قد نقله المسلمون إلى الهند أو الصين، ثمَّ عدَّه الأوروبيون فيما بعد أنَّ تلك المعارف من أصل هندي أو صيني^(٢٧).

لذلك لا يمكن إطلاق الكلام مرسلًا، أو مقلداً، أو مستسلماً لمقولات قيلت قديماً والركون إليها، كما يذهب البعض إلى أنَّ العرب ترجموا ما وصل إليهم من الثقافات الأجنبية ابتداءً من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، إذ نشط السريان في ترجمة المؤلفات اليونانية إلى العربية منذ القرن الثاني للهجرة، واستمروا بذلك إلى أن شاركهم العرب في هذا النشاط، وأنَّ المراكز الثقافية في الأديرة المنتشرة في بلاد الشام قد أثرت في النحو العربي واللغة العربية وطريقة دراستها^(٢٨).

وعلى الرغم من بيان بطلان هذا الزعم لتأخر الترجمة عن عصر وضع النحو وقواعد اللغة، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ العرب لم يتأثروا بثقافات الأمم الأخرى، أو أنَّهم لم يترجموا تلك الثقافات، بل كان هناك تأثير أو ترجمة، ولكن جاء ذلك بوقت لاحق لوضع علم النحو؛ لأنَّ الترجمة جاءت متأخرة، أو من اشتغل بها أو دعا إليها كانت تالية لوضع قواعد اللغة، حتى أنَّ الأثر الهندي

(٢٧) حضارة الهند : ٥٦٤ .

(٢٨) المدرسة الوصفية في الدراسات النحوية : ٥٢ .

الذي تبناه البعض لم يكن مستندا إلى أرضية منهجية صلبة؛ لأنَّ ذلك يفترض وجود مدرسة نحوية هندية واحدة وصاحبة اتجاه نحوي واحد غير أنَّ ذلك غير متحصل في الواقع، لأنَّ المدارس النحوية متعددة، وتتبع مناهج مختلفة، كما لا يوجد وجهه شبه بين منهج المدرسة البانينية، ومنهج أي نحوي عربي، كما أنَّ النحو الهندي مغرق بالفلسفة، وأنَّ المناقشات النحوية عند الهنود تبرز ذلك النهج الفلسفي الذي طغى على الدراسات النحوية الهندية^(٢٩).

إنَّ ما قيل في القصة الهندية المجتلبة من التراث الهندي بحسب المنقول عن البيروني الذي لم يتم القطع بصحة المضمون حتى لو كان النقل صحيحاً، فهناك فرق كبير بين ما ترمي إليه القصة، وما ترمي إليه الروايات العربية عن أولية النحو ونشأته، فلا يوجد تقارب عضوي يسند عملية الربط بين الرواية الهندية، أو القصة، وبين الروايات العربية، وهناك بُعد كبير لا يسمح للتأويل التقاربي أن ينهض بوصفه دليلاً لإثبات التأثير، والمسألة لها أبعاد خطيرة يمكن أن تحمل على أنَّ نشأة النحو العربي كانت من الأساطير، وأنَّ الروايات التي تنسب نشأة النحو إلى أبي الأسود والتي يرجعها إلى توجيه الإمام علي (عليه السلام) له إنما هي من نسج خيال الرواة وبحسب زعم المولعين بالتأثير الهندي، فالأفضل لديهم أن ينسفوا النحو العربي برمته، ويجتهدوا في البحث عن القصص والروايات التي تنكر الإبداع العربي بدلا من تكريس الجهد لترصين الرواية العربية، والبحث عن أقربها للواقع، وإلتماس وجودها الزمني، وجغرافيتها المكانية، فإذا كانت

(٢٩) البحث اللغوي عند الهنود: ٧٤.

الترجمة قد ظهرت في عصر متأخر، فإنَّ النحو العربي بدأت نشأته الفعلية ذات البعد التاريخي الذي أرَّخ للدراسات اللغوية قد بدأ بأبي الأسود ومَرَّ بتلاميذه وصولاً إلى عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي في بداية القرن الثاني للهجرة، وبعد ذلك جاءت مرحلة الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، فإذا كان الدافع هو الحفاظ على القرآن الكريم في بيئة تعرضت للاختلاط، فإنَّ ذلك يؤكد بشكل ثابت أنَّ النحو نشأ في بيئة إسلامية خالصة، ولا يمكن تجاوز تأثيرها إلى تأثير غريب عنها.

ويبدو أنَّ زهاب الكثير من الباحثين إلى النظر إلى النشاط الثقافي الفكري في مدينة البصرة واتصالها بالثقافات الأجنبية، وما تحفل فيه من منطق وفلسفة جعل الفكر، والعقل البصري أكثر استعداداً من غيره لتلقي تلك المعارف والعلوم، ذلك كلُّه بزعم هؤلاء أدى إلى وضع الأسس الأولى لعلم النحو^(٣٠).

قد يكون ذلك مقنعا من ناحية انتشار الثقافات الأجنبية، ولكن ليس على نطاق واسع، لأنَّ الترجمة - مثلما قلنا- جاءت متأخرة عن عصر الوضع الأول للنحو العربي، وأنَّ بواكيره الأولى لم تكن قد اتَّصلت أو تأثرت بالوافد الثقافي الجديد الذي يعود الفضل فيه إلى الترجمة التي لم ينصَّ أي مؤرخ أو باحث على أنَّ النص الهندي المتقدم كان من ضمنها، أو كيفية وصولها إلى العرب، أو إلى العلماء الذين وصفوا النحو، أو إلى المؤرخين الذين نسجوا قصة ووضع النحو على غرار القصة الهندية؟

(٣٠) ضحى الإسلام: ٢٨٩/١، وحضارة العرب: ٤٣٧ .
(٣١) تأريخ آداب اللغة العربية: ٥١/١، ومنطق أرسطو والنحو العربي، مجلة الأزهر مج ٢٣، ج ٩-١٠، رمضان وشوال ١٣٧١هـ، ص ٤٢ .

إنَّ هذا الكلام ساذج يرفضه تعدد مصادر روايات أبي الأسود الدؤلي التي جاءت من أكثر من طريق وإذا حاول من يذهب إلى قضية التأثير إلى اتخاذ ما جاء في كتاب سيبويه أو غيره من تقسيمات منطقية، وأنَّ للهنود تقسيمات منطقية مثل غيرهم^(٣١). بأنَّ النحو العربي قد مرَّ بمراحل كثيرة قبل أن يدوّن في كتب، ككتاب سيبويه، لأنَّ المدة الزمنية بين نشأة النحو، وكتاب سيبويه تزيد على المئة عام، وهذه المدة كافية لتمنح الأصالة للنحو العربي من دون النقل، أو التفكير على نحو آخر^(٣٢).

أما إذا كان هناك تقسيمات متشابهة، فهذا لا يعدُّ دليلاً على التأثير حتى لو كانت هناك مصطلحات قليلة جداً فيها عنصر التشابه؛ لأنَّ مثل هذه التقسيمات موجودة عند جميع الأمم، وإذا سلّمنا جدلاً بالتأثير فإنَّ ذلك لا يتقدم القرن الثالث للهجرة حيث ظهرت الترجمات الأولى للأعمال الفلسفية^(٣٣).

وهذا في حدِّ ذاته يجعل المساحة الزمنية ما قبل ذلك ملكاً فكرياً عربياً خالصاً من دون مؤثرات خارجية، لتعطي العمل اللغوي في وضع النحو وجهه العربي الناصع، لأنَّ الدوافع والأسباب عربية خالصة في بيئة جعلت العقل العربي يبدع أفكاراً عملية للحفاظ على اللسان العربي وصونه من اللحن، ووضع سوراً يحيط باللُّغة ويحميها ويحافظ عليها.

إنَّ النحو الهندي يمثل أقدم الآداب الدينية في العالم، وأنَّ نشأته ارتبطت بالدراسة الدينية التي بدورها أعطته قداسة كبيرة، وجعلته موضع

(٣٢) البحث اللغوي عند العرب: ٣٥٤ .

(٣٣) الخليل بن أحمد: ٦٦ .

اهتمام خاص، وكان الهنود يعتقدون أنّ النحو يحتوي على أسس جميع العلوم وأنّه مقدس^(٣٤). ويمكن أنّ يمثل هذا الوضع الذي ظهر فيه النحو الهندي منطلقاً للقائلين بالتأثر العربيّ من حيث الارتباط بالجوانب الدينية والاهتمام به، ووصفه بأنّه رأس كلّ علم، يضاف إلى ذلك تطابق في وضع الأسس والمضامين والموضوعات النحوية التي تمّ دراستها، فقد بحث العرب تقسيم الكلمة الثلاثي: اسم، فعل، حرف، وتعريف الكلمة: بأنّها اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، ودراسة التمييز بين الحرف الأصلي والحرف الزائد، ودراسة الاشتقاق، ومعاني الحروف، والإعلال كلّ ذلك جعل هناك مشتركات بين المدرسة الهندية والمدرسة العربيّة في النحو^(٣٥).

ولربما من يقف على تلك الموضوعات ليؤكد وجود التأثير الهندي في النحو العربيّ لسبق الهند العرب في مجال الدراسات النحوية، وعلى الرغم من التشابه لا يمكن أن يعدّ دليلاً قطعياً لإمكانية وجود التشابه في كثير من جوانب الحياة بين الأمم، لأنّ العقل البشري واحد، لذلك التسليم بالتأثير الهندي بشكل مباشر يحتاج إلى أدلة أكثر عمقا، وأنّه ليس دليلاً ذلك الذي يركن إلى قصّة لم يقف على حقيقتها سوى النقل، فقد ذهب (الدكتور أحمد أمين) إلى القول وهو يعلق على قصّة البيروني (وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وُضعت في العربيّة على نمط الحكاية الهندية، ولعلّ ما يرجح هذا الظن أنّ الحكاية العربيّة مختلفة الأشكال متعددة الرواية... مما يحمل على الشك في القصّة، ثم هناك شبه بين

ذهاب الهندي إلى مهاديو مصلياً مسبحاً، وبين ذهاب أبي الأسود إلى علي بن أبي طالب يسأله المعرفة في وضع النحو وهكذا)^(٣٦).

إنّ هذا الوله في القصّة الهندية يعتمد الخيال المنسوج من التسليم في التأثير الأجنبي في العلوم العربيّة، ومنها النحو مع أنّ هناك تأكيدات كثيرة من باحثين لهم باع طويل في البحث والاستقصاء ينكر ذلك كلياً، فقد ذهب (بروكلمان) إلى أنّ التأثير الأجنبي في النحو العربيّ سواء كان من اليونان أو الهند لا يمكن إثبات هذا التأثير حتى لو وجدت بعض المشابهات^(٣٧).

إنّ التأثير الهندي الذي يزعم البعض جاء نتيجة المتشابهات في الموضوعات لم يقتصر التشابه بين العاملين الهندي والعربيّ، بل تعدّاه إلى لغات أخرى، ثم إنّ أوجه الخلاف أكثر بكثير من أوجه التشابه، أمّا عبارة (البيروني)، فقد حملوها أكثر مما تحتمل، فهي تتحدث عن أولية النحو الهندي بأنّه (كان قوانين يسيرة كما وصفها في العربيّة أبي الأسود الدؤلي)، فهو لا يرمي أكثر من تشبيه جهود الهنود الأولى في البساطة بعمل أبي الأسود من دون القصد إلى الربط بين العلمين^(٣٨).

إنّ السعي لإبعاد المؤثرات الهندية في النحو العربيّ أو نشأته لا يعني ذلك إبعاداً تاماً يقطع كلّ شيء يمت بصلة للتأثير أو التأثير، فقد يكون هناك تأثير حال العرب كحال الأمم الأخرى عندما تدخلها ثقافات أجنبية، فقد يكون هناك تأثير، ولكنّه جزئي ومحدود، وجاء فيما بعد، وليس في النشأة الأولى على غرار قصة البيروني، كما طوّعها

(٣٦) ضحى الإسلام: ١/ ٢٤٥ .

(٣٧) تأريخ الأدب العربيّ: ١٢٣ .

(٣٨) البحث اللغوي عند الهنود: ١٥٤ .

(٣٤) البحث اللغوي عند الهنود: ٧٤ .

(٣٥) م. ن: ١٣٢ .

البعض على حسب منهجه في الدراسة، وعلى الرغم من التشابه في النشأة، وأنه جاء في أحضان بيئة دينية، ولكن النحو العربي أو الدراسات النحوية نشأت في ظل القرآن الكريم، ولم يكن من المستساغ أن يتبع العرب على منوال دراسات السابقين ليستنبطوا أحكام دينهم، ويقعدوا اللُّغة التي نزل فيها القرآن الكريم^(٣٩).

فالتأثير لم يمتد ليدخل في ميدان الأسس والركائز العلمية، لاختلاف السياقات العلمية والمضامين اللُّغوية والدلالية، فكل لغة سعى علماءها لإيجاد وسيلة لدراسة اللُّغة ومعرفة أحكامها، ودراسة أركانها وخصائصها حتى لو كانت بدائية، ولكن سرعان ما تتضح وتتطور منهجياً، لتصبح دراسة لها تفرعاتها وتفصيلها، وهذا ما شهده علم اللُّغة الذي تفرع ونضج ودرس كل ما يتعلق باللُّغة الإنسانية وأوجد نقاط تشابه بين جميع اللغات، كما وجد نقاط اختلاف بينها.

الخاتمة :

إنَّ الإبداع العربي في دراسة اللُّغة لم يقف عند حدّ وضع قواعد ودراسة مفردات، أو أسس وأصول، بل تعدى ذلك إلى الدخول في دقائق التفاصيل اللُّغوية ودلالات الألفاظ، ومجازاتها، وامتد إبداعهم إلى الصوت، والمفردة، والتركيب، والدلالة، والنص والسياق، وكلّ ما يحيط باللُّغة من ظواهر ومظاهر تجلت في أساليب نطقية رصدها علماء العربيّة، وألفوا فيها كثيراً، وقد أشاد بإبداعهم علماء الغرب، ووقفوا مادحين ومقدرين لذلك الإبداع الذي أضاف إضافات كثيرة للعلوم الإنسانية على وجه العموم، واللُّغة على وجه

(٣٩) م. ن : ٦١ .

الخصوص.

إنَّ مسألة التأثير لها وجودها في الثقافات الإنسانية، ولا يمكن تحصين الأمم من التلاقح الفكري وتبادل الثقافات، ولكن ذلك لا يعني الذوبان في ثقافة الآخر، فلكلّ أمة خصوصيتها، فهي بقدر ما تعطي تأخذ، ولكن في ضمن ضوابط هي من تحددها، أو إن نظامها اللغوي هو من يسمح بالأخذ أو الرفض، والعربيّة ليست بدعا بين أخواتها اللغات الإنسانية، وليس العقل العربي بدعا بين عقول البشرية، فينتج، ويبدع، وتأخذ، ويستوعب، ويقبل، ويرفض، ومن هنا فإنَّ نشأة النحو العربي في بداياته الأولى قد ولد في بيئة عربيّة خالصة، وفي أجواء الإسلام، وفي ظل القرآن الكريم، فلم تسمح له النشأة الأولى بالأخذ من الآخر، لخصوصية الغاية والهدف، ولبعد الترجمة أو المتوفر من النصوص الأجنبية والثقافات الأجنبية المبدولة عصرئذ، أما بعد انتشار الترجمة واطلاع العرب على ثقافات الأمم الأخرى، فمن الممكن أن يحدث التأثير والتأثر، وبعض الباحثين يخلط زمنياً في مسألة التأثير والتأثر، فالبدايات تنأى بنفسها عن المؤثرات الأجنبية في نشأة النحو العربي، ولكن بعد أن نضج، واكتمل ممكن أن يكون هناك تأثير جزئي. لم يرق إلى مستوى الظاهرة أو الشمول التأثيري، لذلك كان وما زال النحو العربي علماً عربياً أصيلاً أبدعته المخيلة العربيّة والفكر العربيّ.

المصادر والمراجع

- أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) تحقيق ونشر: كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٩م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين

- القفطي (ت ٦٤٦هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، دار الكتب، القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م -
- البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثر: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ٢٠٠٣م.
- ٤- البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب: د. احمد مختار عمر، دار الثقافة بيروت، ١٩٧٢م.
- تأريخ آداب اللُّغة العربيّة: جرجي زيدان، الهلال، ١٩٥٧م.
- تأريخ الأدب العربيّ: كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر ١٩٦١م.
- حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتير، ١٩٦٤م.
- حضارة الهند: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتير، ١٩٤٨م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه: د. مهدي المخزومي، الناشر دار الرائد العربيّ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- دراسات في اللغتين السريانية والعربيّة: د. ابراهيم السامرائي، دار الجيل بيروت، مكتبة المحتسب عمان الطبعة الاولى، ١٩٨٥م.
- ضحى الإسلام: أحمد أمين، النهضة المصرية الطبعة السابعة.
- طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- في أصول اللُّغة: فؤاد حنا ترزي، مكتبة لبنان، ناشرون طبعة أولى، ٢٠٠٥.
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة: أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) تحقيق: ادوارد ساخو، لندن، ١٨٨٧م.
- المدارس النحوية: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- المدرسة الوصفية في الدراسات النحوية: د. معاذ الخطيب، الجنادرية للنشر والتوزيع، الاردن، الطبعة الاولى، ٢٠١٤م.
- معجم الأدباء: أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان د. ت
- معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- المفصل في قواعد اللُّغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية: محمد عطية الابراشي وآخرين، المطبعة الاميرية، بولاق ١٩٣٥م.
- منطق أرسطو والنحو العربيّ: د. إبراهيم مذكور، مجلة الأزهر، مج ٢٣ / ج ٩-١٠ رمضان وشوال ١٣٧١هـ.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت: ٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، دار الفكر العربيّ، القاهرة، الطبعة الاولى ١٩٩٨م.
- السوافي بالوفيات: صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.